

مقاربات فلسفية معاصرة للسيكولوجيا.

Contemporary Philosophical approaches to Psychology

بركان حسان^{*1}

¹مخبر حوار الحضارات والعلوم، جامعة باتنة 1 (الجزائر). hassane.berkane@uni-batna.dz

تاريخ القبول: 2025/04/20

تاريخ الإرسال: 2024/07/10

ملخص:

بعد الثورات العلمية التي عرفها العلم الحديث مطلع القرن العشرين، شهدت كل العلوم انقلابا ابستمولوجيا في مناهجها ونتائجها العلمية و حتى من حيث موضوع الدراسة نشهد اليوم ما يسمى بالتكامل المعرفي بين كل العلوم، لكن ذات الانقلاب أكد من جديد حضور السؤال الفلسفي في كل الدراسات العلمية المعاصرة على عكس ما توقعته النزعة العلمية وهو " موت الفلسفة ". أن العلوم الإنسانية ومنها السيكولوجيا، عرفت اختصاصات جديدة، مناهج متعددة ونتائج علمية مؤكدة إمبريقيا، لكن السؤال الفلسفي لا يزال مطروحا وحاضرا بقوة في الدراسات السيكولوجية من خلال استشكالات مفاهيمية أساسية: النفس الروح والعقل وعلاقة كل ذلك بالكائن الانسان. ومن خلال كل ذلك يبقى الجدل قائما حول علاقة الفلسفة بالعلوم الإنسانية عموما وبالسيكولوجيا خصوصا، وهذا يشكل الهدف الأساس من هذه الدراسة النقدية.

الكلمات المفتاحية: سؤال فلسفي؛ سيكولوجيا؛ علموية؛ نفس؛ عقل.

Abstract

After the scientific revolutions concerning modern science in the beginning of the twentieth century, an epistemological – putsch in methods and scientific results happened and we can see nowadays what it is called “ the Cognitive Integration between sciences” related to their subjects , but that fact emphasized the philosophical – question unlike the Scientism tendency, which expected the Philosophy – death. Humanistic Sciences, especially Psychology, has many specialties, new methods and empirical scientific results, but the Philosophical question still be asked and present in modern psychology studies from all the conceptual problematic : psyche, spirit and brain related to Human – Being . Finally, discussions still be present to clarify the relation between philosophy and humanistic sciences mainly psychology and this is our aim from this critical research.

Key Words : Philosophical question ; Psychology; Scientism; Psyche ;Brain

1- مقدمة:

تحتل الدراسات الانسانية والاجتماعية في الراهن العلمي أهمية بالغة في البحوث العلمية الجادة والمستجدة خاصة بعد هيمنة التجريب العلمي والنزعة الوضعية في حقل البحوث العلمية في العلوم الطبيعية و علوم الحياة بمختلف فروعها .و من الدراسات الانسانية اليوم نجد السيكولوجيا التي خطت خطوات جبارة في العلمية البحتة على غرار بقية العلوم التجريبية ، فأنتجت عدة مناهج علمية مثل المنهج الموضوعي الذي ترعّمته المدرسة السلوكية في أمريكا خاصة، وبالإضافة الى ذلك منهج التحليل النفسي بمختلف تطبيقاته وصولاً إلى المنهج التمثيلي والقياسي السيكو ميري... إلخ. لكن السؤال المطروح و بقوة : هل يمكن التأكيد في هذا المقام على غياب السؤال الفلسفي في علم النفس ام حضوره و بقوة ؟ ومن جهة أخرى هل يمكن التأسيس للدراسات السيكولوجية العلمية بإحداث قطيعة ابستمولوجية مع المنحى الفلسفي للإنسان؟ الى أي مدى وصلت القراءات الفلسفية للظواهر السيكولوجية ؟. هذا ما سنحاول الإجابة عليه معتمدين على المنهج التحليلي النقدي من خلال تحليل مختلف التيارات الفلسفية المعاصرة التي اشتغلت على تأويل الظواهر السيكولوجية بالإضافة الى مواقف بعض الفلاسفة / العلماء الذين كانت لهم تأويلات خاصة للظواهر السيكولوجية مثل مشكلة الوعي واللاوعي، العقل / المخ وعلاقته بالأمراض النفسية / العقلية، مشكلة الغرائز وتمظهرها في سلوك الانسان... إلخ؛ كل ذلك يشكل الأهداف التي نريد ان نتوصل الى ايضاحها من خلال هذه الدراسة التحليلية النقدية. ولذلك اعتمدنا خطة بحث نراها منهجية لتسليط الضوء على هذه الإشكالات المطروحة: فبعد المقدمة التي حاولنا فيها طرح الإشكالية بدقة، وبعد محاولة ضبط مفهوم علم النفس في المفهمة، انتقلنا الى استقراء تاريخي لعلم النفس محاولين توضيح نشأة ذات العلم ومختلف المراحل التاريخية التي قطعها وصولاً الى محاولة تطبيق المنهج العلمي البحت في دراساته العلمية / التطبيقية المعاصرة، ثم عرجنا على النزعة النفسانية: مفهومها، ظهورها ومنحائها الفلسفي / العلمي. بعد ذلك انتقلنا الى توضيح وتحليل بعض اختصاصات علم النفس المعاصر مثل علم النفس القياسي، ثم علم النفس الباثولوجي (المرضي) وعلاقته بالفلسفة من خلال محاولة إيجاد العلاقة بين المرض النفسي كالجنون مثلاً والعقل / المخ حسب التأويلات الفلسفية / العلمية التي تقدم بها مجموعة من الفلاسفة والعلماء الذين اشتغلوا في ذات الحقل المعرفي. وأخيراً انتقلنا الى تحليل بعض القراءات الفلسفية للتحليل النفسي على اعتبار ان منهج التحليل النفسي يكتسي أهمية بالغة في الدراسات السيكولوجية المعاصرة وذو علاقة عميقة بالمنحى الفلسفي، وذلك ما حاولنا توضيحه بالتطرق الى مشكلة الوعي واللاوعي من خلال آراء ومواقف علماء / فلاسفة رواد التحليل النفسي الجديد (Néo-Freudisme). أخيراً استنتجنا في الخاتمة اهم النتائج التي يمكن الوصول اليها من خلال ما تم

تحليله سابقا. وتجدر الإشارة في ذات المقام اننا اعتمدنا على مجموعة من المراجع الهامة ذات العلاقة الوظيفية بالموضوع باللغة العربية والأجنبية على السواء.

2- في المفهمة:

علم النفس هو علم يدرس الانسان أو الحياة النفسية لدى الانسان من حيث "هو كائن يشعر، يرغب، يحس، يفعل، يدرك، يتذكر، يتعلم، يتخيل، يفكر ويعي، يعبر، يريد ويفعل... إلخ" (يوسف. م، 1978، ص 11)، فهو يدرس الانسان كفرد ويدرسه كذلك كفرد في الإطار الاجتماعي من حيث هو عضو في أسرة ومجتمع يتأثر بالبيئة الاجتماعية من جهة، ومن جهة أخرى فهو قادر على أن يتخذ من مجتمعه موضوع لتفكيره وأن يؤثر فيه. إذن الظاهرة السيكولوجية لها جانبان: جانب ذاتي فردي داخلي (جواني) وجانب خارجي موضوعي (براني). ان الظاهرة السيكولوجية تتمظهر في سلوك الانسان من حيث هو وحدة لا تتجزأ وشخصية متكاملة وفعالة، يقول "أندريه لالاند" (André Lalande 1867-1963) في معجمه الفلسفي: "بصفة عامة، يمكننا أن نعرف علم النفس بأنه علم الروح أو الفكر. لكن هذا التعريف غير كاف، لأن كلمة فكر يمكن أن تحمل عدة معاني، كما أن بعض علماء النفس المعاصرين قاموا بحذف من دراساتهم ليس فقط مفهوم الروح، ولكن مفهوم الفكر المدرك لذاته -في الحقيقة كلمة علم النفس تجمع عدة دراسات مختلفة والتي تقتضي عدة تعريفات مختلفة" (Lalande, 1996, p 853).

إذن هناك إشكال مطروح يتعلق بتحديد مفهوم هذا العلم: هل هو علم الروح أم الفكر أم النفس؟ وما المقصود بالنفس، هل هي الظواهر النفسية كالوعي / اللاوعي، الغرائز والاهواء، الفعاليات العقلية العليا: الادراك، الذاكرة، الذكاء والتخيل... إلخ؟ ام اننا نتناول مشكلة النفس كما تناولها الفلاسفة؟ اعتقد ان علم النفس اليوم خطى خطوات جبارة في الاتجاه العلمي البحت، لكن ذلك لا يعني اطلاقا انه انسلخ من الفلسفة تماما بالإضافة الى انه في منأى عن التأويل الفلسفي للظواهر النفسية حتى وان دخل الى الحقل العلمي التجريبي (الدراسات الأميركية او الميدانية) وذلك ما تؤكد تلك الدراسات والبحوث الفلسفية المعاصرة والتي اشتغلت في الحقل النفسي / المعرفي كما سنوضح لاحقا.

3-مقاربة تاريخية نقدية:

إن مصطلح علم النفس استعمل في القرن الثامن عشر من خلال السيكولوجيا الأميركية (Psychologia empirica) و كذلك السيكولوجيا العقلانية (Psychologia rationalis) للعالم " وولف " (Wolff 1732-1734) ، كما تطور علم النفس بفرنسا على يد العالم الفيلسوف " مان دو بيران " (Maine de Biran 1766-1824) و المدرسة الانتقائية (école éclectique) و التي كانت تشكل واحدة من بين أربع الأقسام الرئيسة لتعليمه ، فعلم النفس الحديث أصبحت له عدة

ميادين نظرية وتطبيقية في الوقت نفسه ، يقول ج.ب. جيلفورد : " ... فهناك باختصار ميادين عدة لعلم النفس التطبيقي ، كما ان هناك ميادين عدة لعلم النفس النظري ... من ناحية المعرفة السيكولوجية وناحية تطبيقها واستخدامها، وسنرى ما يقوم به السيكولوجي، من حيث هو عالم، في معمله وفي ميدان ابحاثه، وسنشاهد ما يفعله في عيادته وفي مكتبه، حيث يعمل كمهندس بشري من نوع جديد. كما سنرى كيف ان كشف عالم النفس في سبيلها الى تغيير تفكير الانسان و اتجاهاته، و الى التأثير في حياة شعوب كثيرة لا تزال حتى اليوم تجهل وجوده " . (جيلفورد ، 1981،ص18).

لطالما ارتبط علم النفس والفلسفة معا، أحيانا من خلال نظريات الفكر لبعض الفلاسفة منذ القدم، وبداية من القرن التاسع عشر لما تشكل علم النفس على شكل علم. وبداية من نهاية القرن التاسع عشر، مجموعة من الفلاسفة وعلى الخصوص، " هوسرل ادموند " و " فريجه غوتليب " بألمانيا، اتخذوا ردة فعل ضد النزعة النفسانية (Psychologisme) وتنكروا لإقحام علم النفس داخل الفلسفة. ولما أصبح علم النفس علما تجريبيا، فإنه ابتعد أكثر عن الفلسفة، على الرغم من أن مشروع العلوم المعرفية (Sciences Cognitives) - (العلوم المعرفية هي ست : العلوم العصبية ، اللسانيات الحاسوبية ، الأنثروبولوجيا الاستعرافية ، علم النفس المعرفية ، الفلسفة الاستعرافية و الذكاء الاصطناعي) - الرامي إلى تكوين نظرية عامة للعقل أو الفكر وتجديد مقاربة الظواهر العقلية، أعطى القوة لحوار متروك سلفا بين كلا التخصصين، في الوقت ذاته استثار مخاوف وشكوك الفلاسفة، ومنه كيف يمكننا التعامل مع هذه الخلافات في الراهن العلمي؟
لما كتب " رينه ديكارت " (René Descartes) كتابة: أهواء الروح (les passions de l'âme) سنة (1649)، لم يكن يدرك أنذاك على الرغم من ثنائية (الروح والعقل)، ان دراسة الروح عبارة عن مجموع خواص متفرقة.

لكن تلك الدراسة لم ترى النور إلا في القرن الثامن عشر. حيث وضع المؤرخون كلمة " سيكولوجيا" (psychologie) حوالي سنة (1575)، ولكن ذات العلم استعمل من خلال "psychologia empirica" سنة (1732) للعالم " وولف " (Wolff)، كما جاء سابقا، الذي كان يحلل خصائص الروح من خلال الملاحظة الداخلية ، و من خلال كذلك " psychologia rationalis " سنة (1734) حيث يدركهما من خلال حدس عقلائي . وفي الوقت ذاته، في بريطانيا ثم إسكتلندا حيث الامبريقيون الكلاسيكيون يبحثون على أساس نظرية الافكار للعالم والفيلسوف "جون لوك" (John Locke) ، ومنه فكرة المنهج التجريبي والمستوحاة من فيزياء " اسحاق نيوتن " (Newton) و المطبقة على الموضوعات " الأخلاقية " جعلت " دفيد هيوم " (D.Hume) يقترح قوانين الاقتران التي تجمع ذرات الفكر اذ يرد "هيوم" المعرفة الى ثنائية الحس والعقل معا من خلال منهج امبريقي

، اما في فرنسا ومع (مان دبيران) "Maine de Biran" فتتكون فكرة علم النفس تتعلق بـ "الشعور الداخلي". (Larousse , 2005 , p871).

وفي الوقت الذي كان فيه علم النفس والفلسفة يتعالقان ويتلاقحان، ينتقد "إيمانويل كנט" (Emmanuel Kant) في (Paralogisme) علم النفس العقلاني للعالم "وولف" (Wolff)، والذي يعلن في منطقته أن: تأسيس المنطق على أساس علم النفس يشبه تأسيس الأخلاق على الحياة.

ومن خلال هذا، فإن فكرة: أن الفلسفة كنظرية للمعرفة، تحمل ما يجب أن نفكره وعلى أساس شروط التجربة الممكنة، فإن علم النفس يتأسس على طريقة التفكير وعلى أساس شروط التجربة الواقعية.

بينما الكانطيون الجدد (Postkantians) ومجموع التيار المثالي بألمانيا، يعرفون الفلسفة على أنها نشاط نقدي وبحث مجرد، وعلى الرغم من التيار الكانطي الجديد الغني المهتم بالأمبريقية مع (فريز، بينيكيه) (Fries) (Beneke) أو الواقعي "هربارت" (Herbart)، فإن طرق علم النفس والفلسفة لم يلتقيا مجددا في ذات البلد إلا في نهاية القرن التاسع عشر. وعلى العكس، فإن علم النفس الترابطي (Psychologie Associationniste) تطور في بريطانيا وفرنسا، بينما الفلسفة الانتقائية توسعت من خلال "علم النفس الجمعي" (Psychologie Associationniste) الذي تطور في بريطانيا وفرنسا، ومنه توسعت الفلسفة الانتقائية من خلال "علم النفس الميتافيزيقي" (Psychologie métaphysique)، محاولة الوصول إلى خصائص الأنا من خلال الملاحظة الداخلية وهذا ما نفاه وانتقده بشدة "أوغست كومت" (August Comte) مؤسس الوضعية في العلوم الحديثة والذي يتصور أن الظواهر النفسية لا يمكن أن تكون موضوعا يمكن أن نرجع دراسته إلى علم خاص نرتبه ضمن قائمة العلوم الوضعية. فإذا كان هذا العلم يريد أن يدرس الشروط العضوية التي تتوقف عليها الظواهر النفسية والعقلية، فإن هذا سيكون من اختصاص الفيزيولوجيا؛ أما إذا كان يريد أن يدرس نتائج الفعاليات العقلية، فإن هذا الأمر من اختصاص علم الاجتماع. ومن خلال ذلك يفقد علم النفس مبرر وجوده من حيث الموضوع ذلك لأن هذا الموضوع يتقاسم دراسته علمان هما الفيزيولوجيا من جهة وعلم الاجتماع من جهة أخرى. أما من حيث المنهج، فدراسة القضايا النفسية لم تزل في نظر "أوغست كومت" محل صراع بين الطريقة اللاهوتية وبين الطريقة الميتافيزيقية لكن من دون الاتصاف بالوضعية لأن تلك الدراسة تعتمد التأمل الباطني من أجل معرفة الظواهر النفسية. وفي هذا المعنى يؤكد "كومت" أنه لا يمكن اعتماد المنهج الاستبطاني في علم النفس لأن الذات لا يمكنها أن تكون في الوقت نفسه ملاحظة وموضوع للملاحظة، يقول في هذا الصدد: "بأي شيء يستطيع الإنسان أن يلاحظ العقل نفسه، عملياته ونموه؟ ليس من الممكن أن يقسم المرء عقله، أي دماغه، إلى جزأين يعمل أحدهما، في

حين يلاحظ الآخر عمل الأول لكي يرى الطريقة التي يسلكها في هذا العمل " (August Comte , p 321, 1839).

أما في ألمانيا، ومن خلال فيزيولوجيا "مولر" (Müller)، ونظرة "هولملتز" (Helmholtz) وتركيبية "ووندرت" (Wundt) تم تأسيس أول مخبر في علم النفس حيث أن هذا الأخير تطور بظهور النزعة التطبيقية في ذات العام . ومع "قالتون" (Galton) و "بين" (Bain) ببريطانيا ، سيطرت ذات العلم وزاوج مناهجه مع المناهج الاحصائية الناشئة . ومن ناحية أخرى فالفلسفة مع "جون ستيوارت مل" (J.S.Mill) و "هربرت سبنسر" (Herbert Spencer) تريد أن تصبح طبيعانية (Naturaliste) واستقرائية (Inductiviste) أي مؤسسة على علم النفس و البيولوجيا معا بمعنى الجمع بين علم انساني و علم تجريبي و نجد هذا التيار يمتد عند عالم بيولوجيا و عالم النفس و الابستمولوجي ، الفيلسوف السويسري المعاصر "جان بياجي" (Jean Piaget 1896-1980) مؤسس علم النفس الطفل و المنهج السيكو تكويني في الدراسات النفسية المعاصرة وواضع نظرية النمو المعرفي عند الطفل كما يعتبر "بياجي" كذلك رائد المدرسة البنائية في علم النفس المعاصر. ان "جان بياجي" يختلف عن "اوغست كومت" فيما تعلق بعلم النفس، حيث يذكر السيكولوجيا و السوسيولوجيا و هما المجموعتان اللتان تضمنان العلوم اللسانية و علم الاقتصاد. ومنه يبدو مجال علوم الانسان هنا اشملى مما كان عليه في تصنيف "كومت" من حيث ان "بياجي" يضيف العلوم النفسية و يضيف عليها طابع العلمية. ويؤكد المفكر "محمد وقيدي" ان اقتراح "بياجي" هو انه يريد ان يربط الدراسات الابستمولوجية بفرع اخر من علم النفس هو علم النفس التكويني...

فاعتماد التحليل الابستمولوجي على المنهج التكويني المتبع في هذا الفرع من فروع علم النفس، من شأنه ان يجعل من الابستمولوجيا لا تحليليا فلسفيا يستفيد من العلوم الإنسانية، بل علما إنسانيا اخر يمكن ان يضاف الى قائمة العلوم الإنسانية القائمة ... هذا العلم الجديد يسميه "بياجي" الابستمولوجيا التكوينية " (وقيدي. م، 1983، ص 196). وفي ذات المعنى يمكننا ان نقرر ان "بياجي" قد أكد على شروط العلمية للعلوم الإنسانية ومنها علم النفس، فوضع في هذا الصدد شرطان اساسيان هما: التحديد الدقيق لموضوع البحث من جهة، ومن جهة أخرى اتباع مناهج نوعية لمعالجة ذلك الموضوع. ومنه فعلم النفس و علم الاجتماع و علم المنطق قد استطاع ان تحقق الشرطين فتكون نموذجا لعلم انساني مستقل من حيث الموضوع و المنهج عن الدراسة الفلسفية البحثية ، يقول "بياجي" في ذات الصدد : " هنا تكمن عقدة المشكل . فحينما ينفصل ميدان مثل السيكولوجيا التجريبية او السوسيولوجيا التجريبية، عن الفلسفة لكي يعلن عن نفسه كعلم مستقل، فان هذا القرار الذي يتخذه ممثلوه لا يرجع الى كونهم يريدون ان يمنحوا أنفسهم في لحظة معينة شهادة بالجدية او بالقيمة الأسى. ان هذا القرار يقوم فقط على ترك نوع معين من المناقشات التي تفرق بين العقول على ان يلتزموا باتفاق فيما بينهم بالا يتحدثوا الا في

المسائل التي يمكن تناولها باستخدام بعض المناهج المشتركة وال قابلة للإيصال" (J. Piaget , 1973, p 15).

ان هذا المنطلق لذات العلم الفتي أي علم النفس، استدعى مصالح الفلاسفة، فمدرسة " برنتانو" Brentano وستونف Stumpf و ماينونغ Meinong بالنمسا، يعرف مشروعه على أنه علم النفس الوصيف (Psychologie descriptive) وفي الوقت ذاته كميثافيزيقا. ومن خلال ذلك فأقسام علم النفس بالجامعات الأوروبية تجمع علماء النفس والفلاسفة، كما ان بعض الفلاسفة مثل " ماخ " (Mach) يقدم نفسه على أنه ينتمي للاختصاصيين معا. لكل ذلك "ما يمكن أن ندعوه " ثورة الفلاسفة " ضد التصاعد القوي لعلم النفس يأتي في ثلاث مراحل:

1-3 المرحلة الأولى: جاءت مع الكانطيين الجدد مثل "ريكارت " أو " لوتز " (Lotze)، فهذا التيار يرفض باسم الفعل النقدي لنظرية المعرفة كل اختراق لعناصر إمبيريقية في دراسة الفكر. (إن مصطلح النزعة النفسية psychologisme استخدم في الحقيقة حوالي سنة 1850 لتعيين مذهب بينيكيه (Beneke)).

2-3 المرحلة الثانية: جاءت من مفكر معزول هو " فريج " (Frege) الذي يدافع، ضد المنطقيين النفسانيين "Psychologistes"، كل اختزال لمحتويات الحكم أو معاني الأفكار أو التمثلات ، في الوقت الذي يؤسس فيه لمنطق جديد ، " اذا كان فريجه قد توصل أولا الى ابتكار المنطق الحديث بوسائله الخاصة ، فلا يجوز للتاريخ ان ينسى ، مع ذلك، ان خطوات عديدة قد تحققت في هذا الاتجاه قبل ال Begriffsschrift بسنوات ". (بلانشي ر.، 1980 ، ص 419).

3-3 المرحلة الثالثة: هذه الانتقادات استبعتها " إدموند هوسرل " في بحوثه المنطقية سنة (1901) (Larousse , 2005 , p 874) ، فلقد قرر " ادموند هوسرل " ان كلمة فينومينولوجيا تشير الى منهج جديد في الوصف الفلسفي وهو " ذلك المنهج الذي يهدف الى نظام سيكولوجي اولي يكون بمثابة ركيزة متينة لإقامة علم نفس تجريبي من جهة ، و لوضع فلسفة كلية شاملة تكون بمثابة معيار لفحص منهجي من جهة أخرى " (Husserl . E, 1958, p258). واستنادا الى المنهج الفينومينولوجي ذو الأهمية الكبيرة في بعض الدراسات الإنسانية، يمكننا التأكيد على ان الفينومينولوجيا تعطي أهمية بالغة للانا Ego وهو الانا المتعال الواعي، هذه الذات الشاعرة (الجانب النفسي الذاتي) في علاقتها بالموضوعات او الظواهر من خلال فعل ذهني عاقل ومتعلق، ومن هنا فالموضوع لا يمكن فهمه الا إذا أدركه العقل حدسيا وأعطاه معنى او دلالة بوصفه ماهية خالصة. و للتذكير فلقد نشأت في علم النفس الحديث المدرسة الظاهرية على غرار بقية المدارس

كالمدرسة النفسية الشعورية بزعامة "هنري برغسون" ومدرسة التحليل النفسي (Psychoanalyse) بزعامة "سيغموند فرويد"، المدرسة السلوكية بزعامة "واطسون" (Behaviorism) ، و المدرسة الغشتالتية (Gestalt) وغيرها .
فالأزمة ظهرت اذن سنة (1913) على المستوى القانوني عن طريق عريضة لفلاسفة جامعيين ضد منح مناصب لعلماء النفس بأقسام الفلسفة.
و بعد الحرب العالمية الأولى، تبين ان طرق علم النفس و الفلسفة لم يتقاطعا على مدى طويل، فأعمال "واطسون" (watson) و السلوكيين الرافضين لكل ما هو شعوري وفكري، و بقدر ما يقوله علماء النفس الغشطالت (Gestalt) الذين يؤسسون لتقاليد تجريبية حيث الفلاسفة لا يجدون أنفسهم فيها، خاصة الذين لديهم نفس المنبع مثل الفينومينولوجيا (نظرية الغشطالت مصدرها الأكبر تيار برنتانو . و بفرنسا حيث حصل فصل بين علم النفس التجريبي و التحليل النفسي (Psychanalyse) ، وحيث مؤلفون مثل " جورج كونغيلاهم " (-1904 G.Canguilhem 1995) و ميشال فوكو (1926-1984 M.Foucault)، يرفضون أن يكون علم النفس كأداة للتطبيع الاجتماعي (Normalisation Sociale) ، فالطلاق بين علم النفس و الفلسفة يبدو وكأنه أصبح مستهلكا .

4 - النزعة النفسانية: (Psychologisme)

هي نزعة تريد أن تعطي كل الأولوية للبعد النفسي و لكل الفعاليات منها نظرية المعرفة والمنطق على الخصوص ، يقول " كوتوراه " في هذا الصدد : " ان النزعة النفسانية هي ادعاء بأن علم النفس اقتحم الفلسفة وأنه يؤسس لها ... فعلم النفس أصبح علما وضعيا وتجريبيا ، ويطبق في المخابر ، إنه فيزيولوجيا الجهاز العصبي وأعضاء الحس ... وفي الوقت الذي يتأسس فيه علم النفس كعلم مستقل ، فإنه لا يزال يحتفظ بحماسة ايجاد حلول لكل المسائل الفلسفية ، أو تقدم بعض العناصر ومعطيات حلولها ... ولا عجب أن شرط هذه البحوث التي تتبع منهج علوم الطبيعة، تقدم باستمرار هذا النهج المزدوج الامبريقي التطوري " (219-232 p , 1906 Couturat)) فتلك النزعة تريد أن ترد كل المسائل الفلسفية (المنطقية، الأخلاقية، الجمالية و الميتافيزيقية) إلى مسائل نفسية، و في مقابل النزعة النفسانية (psychologisme)، نجد أيضا النزعة "الاجتماعية (Sociologisme)" . و من خلال ذلك يمكننا ان نقول ان النزعة السيكلوجية هي " اتجاه فلسفي حديث، ظهر في انجلترا وخاصة بأكسفورد ويتزعمه " سكوت شيللر " F.S.Schiller . و نادى أصحاب هذه النزعة بان العمليات العقلية المنطقية مثل الحكم، الاستنباط، التصور، التعرف على هوية الشيء، تتضمن جميعا مظاهر نفسية، ومنه لا يمكن ان تتم العمليات المنطقية الخالصة عن طريق التفكير العقلي المجرد. فالمقومات الأساسية عند شيللر مثل الضرورة و اليقين و البدهة، ما

هي الا مفاهيم منطقية الظاهر، لكنها سيكولوجية المضمون و منه لا يمكن فصلها عن سياقها النفسي " . (قباري، 1980، ص 45) .

إذن النزعة النفسانية ترجع الخواص الموضوعية للمعنى والمنطق لقوانين أو خواص نفسية أو ذاتية حيث يرد المعياري لخواص طبيعية أو سببية. ان مفهوم النزعة النفسانية ظهر في الفلسفة الألمانية في القرن التاسع عشر ليحدد تأويلات " إيمانويل كانط " التي تختزل المتعالي في خواص العقل البشري – وفي نهاية القرن التاسع عشر، تم تحديد نظريات المنطق، مثل تلك التي هي عند " ج. س. مل " و " ماخ " والتي تختزل قوانين المنطق في قوانين الفكر البشري وتفسر المعاني الموضوعية في إطار العلوم الطبيعية وعلى الخصوص علم النفس. وفي القرن العشرين، يحدد ذات المفهوم كل اختراق غير مبرر لعلم النفس التجريبي أو العام، سواء في الفلسفة او علم الاجتماع او حتى التحليل النفسي (Psychanalyse) .

كما ظهرت النزعة الضد – نفسانية (Antipsychologisme) والتي تقضي بتطبيق المعايير جيدا، والمثل العليا، حيث يجب أن تكون مقيدة بالعقل لكي يمكن الاشتغال بها (pouvoir opérer). إن الطبيعانية المعاصرة (le Naturalisme Contemporain) تحاول أن تعرف الأشكال المعقلنة للنزعة النفسانية. بالإضافة الى ذلك، يرد بعض النقاد على النزعة السيكولوجية على انها باطلة لأنها تعتقد ان الاحكام المنطقية لا يمكن دراستها بعيدة عن السياق العقلي او المقاصد التي توجه تلك الاحكام المنطقية. ذاك ما جعل الفيلسوف والمنطقي "بول موي" يرد على ذات الاتجاه بقوله ك " عندما يصدر الانسان حكما حقيقيا، فان هناك قصد يسيطر على كل شيء و يوجه النفس باسرها، فهو قصد اجادة الحكم و التفكير طبقا للحقيقة " . (بول موي ، د ت ، ص 46) .

5- علم النفس القياسي: (Psychométrie) :

هو علم قياس العمليات النفسية و الفحوص العقلية، و منذ سنوات (1930)، يعني مجموع المناهج و المعارف الآتية من تطبيق الرياضيات في علم النفس. لقد جاء علم النفس القياسي من علم النفس الوضعي، الأمبريقي (Empirique) و الإجرائي (opérationnaliste). إنه أحد الأشكال الراضية لعلم النفس الفلسفي و تطوره يبدأ من عام (1930) و بأعمال أمريكية عند التقاء السيكو فيزياء (Psychophysique) ، و علم النفس للفحوص العقلية (Tests mentaux) و الإرادة العامة لتأسيس المناهج و الطرق العلمية ، و كذلك المخططات النظرية (Schémas théorique) المؤسسة على الشكليات الرياضية (Formalismes mathématiques) . لقد استعار علم النفس القياسي بعض السكيمات (الصور الاجمالية) (Schèmes) من البيولوجيا (وكذلك البيومتري biométrie الانجليزي والفيزيولوجيا) و من الفيزياء (مثل السيكو فيزياء الألمانية).

ان الطرق الخاصة بقياس كمي للفعاليات النفسية (فحوص قياس الذكاء، المهارات، القدرات و الشخصية) يضاف إليها أدوات التعرف و التحديد للقدرات الكامنة وراء السلوكيات

الظاهرة (مثل تحليل عوامل مكونات العقل)، طرائق احصاء تحليل المعطيات التجريبية (أشكال و ديناميكية الظواهر النفسية) ، بالإضافة إلى تقنيات تصميم اشتغال الدماغ (المخ) ، ومنه يحاول علم النفس القياسي الاستقلال عن علم النفس العام بحجة الاختصاص واستخدامه للرياضيات. إذن علم النفس القياسي يقترح مقاييس غير مباشرة لأبعاد نفسية (مثلا الذكاء، القدرات الحسية، المهارات، الشخصية وفعاليات نفسية / ذهنية أخرى تطويرا لطرق غير منفصلة لتمثيلات ضمنية لظواهر نفسية، وادوات للقياس النفسي الذي يشكل في الحقيقية مجموعة من النظريات العقلية، " إن الذكاء هو ما تقيسه فحوصنا " (p5 , Mitchell , 1990) ، فهذا شعار يعكس خطوة تمثلها مناهج حول تطور المفاهيم في ذات العلم .

أخيرا، نستنتج ان علم النفس القياسي يساهم في إعادة تعريف مفاهيم في علم النفس عموما، بالإضافة إلى علم النفس القياسي أو السيكمي، وهناك اختصاصات علمية جديدة في ذات العلم نذكر منها :

6- علم النفس الباثولوجي (Psychopathologie) أصل الكلمة هو ألماني و الذي يعني علم يهتم بدراسة الامراض العقلية / النفسية، و اليوم يستخدم على أنه دراسة للظواهر المرضية للشخصية و التي أسس لها العالم " ريبو " (Ribot 1839-1916) (Larousse , 2005 , p 875) . ويجب ان نميز في هذا المقام بين الاستمولوجيا وعلم النفس المرضي على أساس انه اختصاص علمي، وكذلك فلسفة علم النفس المرضي والتي تهتم بالاختيارات الميتافيزيقية والأخلاقية والتي يمكنها ان تؤسس لنظرية في الجنون وبالتأكيد تكونها في الحقل العلمي وبتطبيقات طبية بحتة. وإذا عزلناه (علم النفس الباثولوجي) عن التطبيقات التحليلية، فان علم النفس الباثولوجي يطرح بقوة عدة إشكالات فلسفية من حيث ان الجنون لا ينفصل عن مفهوم العقل. ان علم النفس الباثولوجي يتأسس اذن على فرضية تحديد (تقليص) أنثروبولوجي لشروط اشتغال العقل ويضع ما يتبقى من الانسان عندما نفقد الممارسة: حقيقة ان الجنون يتميز عن واقع العقل على ذات الأساس. و من خلال ذلك وجب استبعاد الحلول الدينية (الثيولوجية) والتي تجعل من المجنون مذنب او عاصيا ، و من الجنون على انه تمظهر لتعالى الشر. ان المماثلة في عقاب بعض المجرمين المنحرفين تبقى بعيدة المدى: هل يمكننا ان نفعل الكثير من الشرور من دون ان نكون مرضى (مرض نفسي او عقلي)؟. و مع انتشار الأفكار الوضعية خلال سنوات (1850)، انتشرت فكرة ان " المخ " (العقل) هو الذي "يصنع" الجنون سواء عن طريق إصابة عضوية او عن طريق "ضمور عضوي" مما ترك اثرا عميقا في علم النفس حيث نشأ تدريجيا علم النفس المرضي الوضعي للعالم "ريبو" كما اشرنا سابقا الى ذلك ، وكذلك الامر بالنسبة الى التيار الذي "يعضون" (يرده الى إصابة عضوية بصفة كلية و يستبعد المنحى النفسي تماما) المرض العقلي من خلال تمديد مجاله من حقل الذهان الى حقل العصاب ، مما يؤكد هشاشة المفاهيم اللاعلمية للوعي و للعقل و هذا ما يرفضه بعض

الباحثين في ذات الحقل المعرفي او حتى الاقتراح المتعلق بالتنويم المغناطيسي . ان علم النفس الباثولوجي يقدم لنا حججا نسبية للجدال الضد-نفساني، وغالبا للرفض المتعلق بالتصور المجرد في الفلسفة.

ومن خلال علم النفس المرضي يمكننا طرح السؤال الأساس: هل هناك علاقة بين علم النفس والفلسفة؟ لماذا لا يزال السؤال الأبستمولوجي مطروحا في السيكلوجيا؟

7- في العلاقة بين الفلسفة وعلم النفس المرضي:

يجدر بنا أن نميز بين الأبستمولوجيا وعلم النفس المرضي من حيث كونه اختصاص علمي، وكذلك التمييز بين الفلسفة وعلم النفس المرضي من حيث كون الفلسفة تشتغل على القضايا الأخلاقية والميتافيزيقية، ومن خلال ذلك يمكن رد نظرية الجنون وبنائها العلمي إلى الحقل الطبي. إن علم النفس المرضي – إذا ما استبعدناه عن حقله التطبيقي في التحليل النفسي - Psychiatrie - يطرح عدة أسئلة ومشاكل فلسفية، من حيث أن الجنون لا ينفصل عن معطى العقل، ومنه فذات العلم مبني على فرضية تحديد أنثروبولوجي لشروط اشتغال العقل. إذن وجب استبعاد الحل الديني أو اللاهوتي الذي يجعل من المجنون مذنبا ومن الجنون مظهر لتعالى الشر، فأحيانا المماثلة في معاقبة بعض المجرمين الشواذ يطرح أكثر من سؤال: هل أن فعل الشر بصورة دائمة له علاقة بالمرض العقلي؟ هذا السؤال له بعد فلسفي لأنه يحيلنا إلى عدة تساؤلات هامة: هل المجنون فاقد للعقل؟ هل المجنون قطع صلته بالأخلاق وبالقيم الإنسانية وبالمجتمع والثقافة؟ إن العالم " بينال " (Pinel Philippe 1745-1826) هو أول عالم نفس مرضي واجه ذات السؤال من حيث فرضيته القائلة إن المجانين لم يفقدوا عقولهم وأنه لهم القابلية لـ " معالجة أخلاقية " من حيث أنه يفترض قابليتها للعلاج الجوهري. إن العقل، من خلال ذات المنظور، يبقى كالنواة التي لم يمسه " الهوس " وتتكشف بعد الأزمة من خلال الذكريات والاستبطان. فصلاحية هذه الفرضية تتأكد من خلال طريقة مواجهة المريض وذلك من خلال الاحاطة بجنونه المرضي للوصول إلى النواة ومنه معالجته. وإذا كان هذا الإجراء سمح " بتطبيب " الجنون وأعطى نشأة التطبيق التحليلي النفسي، فإن فكرة وجود جانب سوي للانا على الرغم من جنونه لها قيمة معيارية أكثر منها إكلينيكية. ولما سيطرت "الأفكار العضوانية" (idées organiciste) بعد عام (1850) القائلة بأن المخ يصنع الجنون (من خلال اصابة أو تحت تأثير انحطاط آخر) حيث كان لها تأثير كبير في علم النفس والذي نشأ أساسا من أرضية علم النفس المرضي الوضعي (psychologie pathologique) positiviste عند العالم " ريبو " (Ribot). ونفس التيار الفكري الذي " يعضون " المرض العقلي من حيث تحويل حقلها من " الذهان " (Psychoses) إلى العصاب (Névroses)، ذلك ما يؤكد هشاشة المفاهيم اللاعلمية للوعي والعقل معا، والذي يدحض التشخيصات المتعددة أو الافتراض المغناطيسي (hypnotique). فعلم النفس المرضي يقدم حججا نسبية للجدل الضد – روحاني

(Anti-Spiritualiste) وبصفة عامة لرفض التصور المجرد للفلسفة. إذن المرض العقلي يساعدنا في معرفة أكثر للفكر الطبيعي (l'esprit normal) عند " بيار جاني" (Pierre Janet 1859-1947) ثم عند " سغيموند فرويد " (Freud 1856-1939) .

ومن خلال ذلك فعلم النفس المرضي هو في خدمة التحقيق الفلسفي من حيث المبدأ، إذ المفارقة الدلالية للعصاب تؤسس توسع مفاهيم الرغبة، الإرادة، الأنا، وتخلق الجديد لكل من "ما تحت الوعي" (Subconscient) / " اللاوعي " (L'inconscient) النفسي ... إلخ. فانتقاد علمية "فرويد" والتي تقدم بها العالم " قرانديوم (Adolphe Grunbaum 1923-2018) لا تنزع شيئا من البراعة الأخلاقية للأنثروبولوجيا التي أسسها ، كما يؤكد من جهة أخرى أن المرض العقلي يبقى إمكانية تتعلق بمهية الانسان وليس حتمية بيولوجية .

ومنه فعلم النفس المرضي الفينومينولوجي عند " كارل ياسبيرس " (-Karl Jaspers 1883) (1969) طبق المتغير الباثولوجي على الأسس الوجودية والتي تعطي المعنى المقصود، فكيف يمكننا أن نجعل المرض العقلي غير طبيعي من دون صناعة نوع من العجز الميتافيزيقي المخصص أو حرية لا يمكن فهمها والتي تتحمل لعنة علمانية؟؟؟، وعلى العكس من ذلك فإن علم النفس المرضي المعرفي والذي " طبعن " (naturalisant) قصيدة الحياة العقلية المرضية بما فيها ذاتيتها ونوعيتها الاخلاقية ، يفكر عدم تأقلم المريض بالمفهوم الدارويني (نسبة الى تشارلز داروين) ، الوراثة ، وفي النهاية يرجع الخطأ كله إلى الطبيعة .

فهل من خلال هذين الرأيين المتناقضين، يبقى المرض العقلي يساءل الفلسفة؟ هل هناك عوامل وأسباب لا واعية في أعماق النفس هي التي تقف وراء كل باثولوجيا نفسية؟ ذاك ما يجيب عنه التحليل النفسي المعاصر.

8- القراءة الفلسفية للتحليل النفسي:

إذا كان التحليل النفسي هو علم اللاوعي فهو ليس بفلسفة، لكن بقدر ما يدرك الفيلسوف ذات الخطاب، يعايشه ويعانيه سيدخل التحليل النفسي في حقل الفلسفة. لقد كانت الفلسفة، طوال قرون مضت خطابا للوعي كجوهر للحياة النفسية بكاملها في حين بالنسبة لـ" فرويد " فالوعي ما هو إلا " صفة بسيطة من صفاتها (الحياة النفسية)، يمكن وجودها مع صفات أخرى أو يمكن انعدامها " (Freud , 1965 , p 37) ؛ ولقد كان بفرنسا تحفظا حول مؤلفات فرويد في بداياتها ما عدا جماعة السوراليين الذين أعجبوا به من موقع ان العلم يعطي للعلم وللحياة النفسية الغامضة كرامتهما، فعلق فرويد سنة (1925) قائلا: " ربما هناك اعتقاد في معاودة إنتاج أشياء معاشه من قبل، ومع ذلك في هذا الأمر سمات خاصة. فقد ظهرت اعتراضات تنم عن سداجة عجيبة، مثل هذا الاعتراض: إن اللطافة الفرنسية صدمتها حذقة ورطانة التسميات التحليلية النفسية " (Freud , 1965 , p51) .

كان طموح " فرويد " في شبابه كان متعلقا بالفلسفة: " لم أطمح في سنوات شبابي لغير المعرفة الفلسفية، وأنتي أوشك الآن على تحقيق ذلك الطموح، منتقلا من الطب إلى علم النفس" (Freud , 1965 , p 55) وقد أعلن ابتعاده عن أولئك صانعي رؤى العالم وهم الفلاسفة كما صرح في كتابة الذي ترجمه " جورج طرابيشي" وهو: الكف، العرض، الحصر، سنة (1982). لقد كانت الفلسفة ما قبل الفرويديه متألفة مع فكرة اللاوعي الذي كانت تحدده سلبيا بوصفه غياب الوعي. كان اللاوعي منسوبا إلى نظام الجسم والشهوة، بوصفه عقبة أمام حرية الفاعل الواعي، بمثابة الهيمنة الناطقة في داخله والتي كان يتوجب عليه خنق صوته، مخافة أن يغرق في ازدياد الذات. وساهمت الجنسية والتي تم حصر اللاوعي فيها، في جعل التحليل النفسي مجرد تفسير لنفائات الوجود ودناءات الناس، فالتحليلات الفرويدية الخاصة بالأيروسية وعقدة أوديب أخذت كتحليل أحادي جنساني للإنسان. كتب " جورج بولتيزر " (Politzer 1903-1942) كتابا عنوانه: " نقد أسس علم النفس " ، و الذي كان يرمي من خلال هذا المشروع إلى تنقية فكر " فرويد " من " تجريده " و من " واقعته " لصالح نظرية تلازم المعنى ، فقام بطرح جملة قضايا نظرية معتبرة كونها أسطورية دون أساس ، ولا تشكل شيئا سوى بناء ما وراء علم النفس (parapsychologie) ويرد " بولتيزر " على فرويد قائلا : " إن اللاوعي لا يفكر ، بل الذي يفكر هو المحلل النفساني " . (Politzer, 1967, p 8).

اللاوعي و الوعي: يحاكم " جون بول سارتر " اللاوعي في كتابة " الوجود و العدم " و يقيم مكانه أطروحته: " الإيمان الزائف " (la mauvaise foi)، فحجة " سارتر " تتركز أساسا على مفهوم " الرقابة " و هو الفعل الذي بواسطته يمارس الأنا الأعلى وظيفته في الحد والاختيار بين اللاوعي و ما قبل الوعي (Subconscient) و الوعي (le Conscient)، فكيف يمكن للرقابة أن تكبح من دون أن تعرف بطريقة معينة ما تكبحه (تكبته) ؟ " كيف يمكنها التفريق بين الدوافع القابلة للكتب دون أن تعي أنها تدركها؟ أيمن تصور معرفة يمكنها أن تكون جهلا للذات؟ " (Sartre , 1943 , p 347). إن اللاوعي هو نتاج رفض الفاعل، فهو طريقة وعي لكنه يجعل من نفسه غريبا بالنسبة إلى نفسه، وهو القصيدة المتناقضة من حيث أنها تكون المعنى وتكون بوضعه لا معنى له في آن واحد. إن اللاوعي عند " فرويد " هو غريب المعرفة، ومنه نجد الفاعل و الوعي عند " سارتر " مترابطين ترابطا كلياً، وهذا لا يعني فقط تثبت الأنا المفكر (co-gito)، بل يعني أيضا أنه بذاته هو نور نفسه المكتمل، فاللاوعي يصدر عن الوعي لأن الوعي يكون لكل ما يمنحه لنفسه بما في ذلك ما يمنحه لنفسه بوصفه غير متوجب منحه و من خلال ذلك يقترح " سارتر " ما سماه " التحليل النفسي الوجودي " و الذي يتأرجح بين العمل الأدبي والقصد الخلفي. و من جهة أخرى قدم الفيلسوف " مورييس ميرلوبونتي " قراءة دقيقة لـ " فرويد " في كتابة " ظاهرة الإدراك " مع بقائه في الأفق الفلسفي، ويشدد على الخلاصات / التوليفات السلبية التي ينهل الوعي منها دلالاته

حيث يرفض "الأسطورية الشيثية" و"الجبرية" الفرويدية، اللتين تبدوان كثمرة تنظير مؤسف، ويريد أن يفهم المعاش على نحو مختلف عن النحو الذي جابهنا به التحليل النفسي حيث يرى "ميرلوبونتي" أن فرويد قرر بطريقة لا تقبل الدحض:

أ / لا شيء بلا دلالة في سلوك الإنسان، وهو بذلك صادق مجددا من خلال طرق أخرى، كمفهوم القصيدة عند "برنتانو" و"هوسرل".

ب/ الجنسية تستأثر بمعنى هذه الاشارات المتجسدة في مسالكنا، يقول في ذات الصدد: "ليس الجنسي عند فرويد هو المولد، التوليدي فالإيروسية ليست غريزة ... وإنما هي ما يجعل الانسان ذا تاريخ. وإذا كان التاريخ الجنسي لأنسان ما يقدم مفتاح حياته فذلك لأن طريقة وجود الإنسان في العالم، أي مسلكيته تجاه الزمان والآخرين تنعكس في جنسيته" (Merleau – Ponty 1945, p 347)، ومنه فخطأ "فرويد" أنه جعل اللاوعي أقنوماً، فالشفاء من المرض النفسي أو العقدة النفسية هو الفعل الذي بواسطته يؤسس الفاعل معنى يفك عقدة العصاب Névroses وذلك من خلال نقل المبادر: الممتنع الذي كان يسجنه في الرتبة إلى فسحة قوانين المحاورة والاتصال وهي بالذات قوانين الوعي، كما أن حضور المحلل النفسي في هذه العلاقة بين الذات والذات هو ضمان عدم الانطواء على الجنون بمعنى على يقين الذات المباشر.

ولقد قدم الفيلسوف وعالم النفس "أريك فروم" (1900-1980) دراسات جادة حول التحليل النفسي والدراسات السيكولوجية الحديثة نذكر منها "ازمة التحليل النفسي"، "التحليل النفسي والدين"، "مساهمة في علوم الانسان"، "تشریح التدميرية البشرية" ... الخ. ويعتقد "فروم" ان التحليل النفسي يمر بأزمة معاصرة قد تكون ظاهرة من حيث عدد الطلبة في معاهد علم النفس وخاصة المتخصصين منهم في العلاج النفسي هذا من جهة، ومن جهة أخرى من حيث عدد المرضى الذين يبحثون عن العلاج النفسي. لقد تم تقديم المحلل النفسي كبديل عن الدين والسياسة والفلسفة، يقول في ذات الصدد: "... جرى الافتراض ان فرويد قد اكتشف كل اسرار الحياة: اللاشعور، عقدة اوديب، إعادة تجربة الطفولة في الحاضر؛ ومتى وعى المرء هذه المفاهيم لم يبق في ذهنه شيء غامض او مشكوك فيه" (فروم، 2012، ص 21). ان ازمة التحليل النفسي حسب "فروم" دائما تتعلق في تحول التحليل النفسي من نظرية جذرية الى نظرية تتماشى مع العرف والعادة الاجتماعية وبمعنى اخر انها أصبحت تخفيف عن الانسان لنيل قسط من الاحترام والتقدير بعدما تلقت استهجان واذم في بداياتها العلمية. لقد قارب "فروم" مفهوم النكروفيليا والبيوفيليا (محبة الحياة) بمفهوم "فرويد" لغريزة الموت وغريزة الحياة (الايروس). فالايروس يسعى الى توحيد المواد العضوية في وحدات اكبر دائما، في حين تحاول غريزة الموت عزل البنية الحية وتفكيكها. ولا تحتاج علاقة غريزة الموت بالنكروفيليا الى مزيد من التوضيح. وبما ان البيوفيليا هي المحبة العاطفية للحياة ولكل ما هو حي؛ فإنها كذلك الرغبة في المزيد من النمو،

سواء في الشخص البيوفيلي الذي يفضل ان يبني على ان يحتفظ كما يفضل كذلك ان يكون أكثر مما هو عليه على ان يملك أكثر. فهو شخص قادر على التساؤل، يفضل ان يرى شيئاً جديداً على ان يجد تأكيداً للقديم، يرى الكل وليس الجزء فقط، يرى البنى وليس المجاميع، يريد ان يصوغ ويؤثر بالحب، العقل، المثال، لا بالقوة، وبتقطيع الأشياء وفصل بعضها عن بعض، ولا بالطريقة البيروقراطية في إدارة الناس كأنهم أشياء. ولأنه يستمتع بالحياة وكل تبدلاتها فهو ليس مستهلكاً عاطفياً لـ "الاثارة" المحزومة حديثاً. ان الخير عند " فروم " هو ما يخدم الحياة بينما الشر هو كل ما يخدم الموت، فالخير هو اجلال للحياة وهذه العبارة هي فرضية عند " البرت شفائتسر " Albert Schweizer ، وهو واحد من اكبر ممثلي محبة الحياة سواء في كتاباته او في شخصه. كما يمكننا ان نفهم البيوفيليا على انها دافع طبيعي بيولوجي عند الانسان بينما النكروفيليا هي ظاهرة نفسية مرضية.

ومنه فهي قد تظهر نتيجة النمو المعرقل او الشلل النفسي، وبمعنى اخر فهي نتيجة للحياة غير المعيشة وحالة وسطى بين الإخفاق في الوصول الى النرجسية وعدم الاكتراث، والنتيجة التي يتوصل اليها " فروم " هي : " ان التدميرية ليست مساوية للبيوفيليا بل هي البديل منها . وفي محبة الحياة او محبة الموت يكمن الخيار الذي يواجه كل انسان. وتنمو النكروفيليا عندما يعاق نمو البيوفيليا . والانسان موهوب بيولوجيا بالقدرة على البيوفيليا ، ولكنه من الوجهة السيكلولوجية لديه الاستعداد للنكروفيليا بوصفها حلاً بديلاً " . (فروم، 2015، ص 21). إذا كان النجاح هو القيمة العليا للإنسان وإذا لم تكن لديه فائدة في الحب والحقيقة والعدل والرحمة، فانه قد يعترف بهذه القيم لكنه لا يجاهد من اجلها ولا تكون قضية في حياته. وقد يعتقد حينئذ انه يعبد المحبة في حين انه يعبد وثناً يعتبر "مثلية" لغاياته الحقيقية. فالناس الذين لا يهمهم سوى بقاء الدين والكنائس قد يقبلون بهذا الوضع لان الفراغ الروحي لدى الانسان يجبره على إيجاد ملاذ امن وهو الدين. يرى " أريك فروم " ان " فرويد " هو الذي جعل اللغة المنسية ميسورة لنا، فمن خلال جهوده في فهم لغة الاحلام فتح الطريق لفهم خصوصيات اللغة الرمزية واطهر بنيتها ومعناها، ومن جهة أخرى اثبت ان لغة الاساطير الدينية هي في ماهيتها ليست مختلفة عن لغة الاحلام، أي انها تعبير ذو معنى عن تجارب مهمة. ان تفسير " فرويد " للأحلام وللأساطير جاء نوعاً ما ضيقاً من حيث انه اعطى دوراً عظيماً للغريزة الجنسية (الليبيدو)، لكنه قدم فهماً جديداً للرموز الدينية في الأسطورة والعقيدة القطعية. " (فروم، 2016، ص 145) .

لقد قرأ " أريك فروم " التحليل النفسي قراءة نقدية جديدة وحاول تجاوز الكثير من القضايا التقليدية التي أسس لها " سيغموند فرويد " لكن من دون قطع العلاقة تماماً مع التحليل النفسي لان هناك الكثير من القضايا التي لا تزال غامضة الى اليوم، ومن خلال ذلك يمكننا استطلاع بعض القراءات الفلسفية للتحليل النفسي والتي نراها ذات قوة و حضور في الدراسات

السيكولوجية المعاصرة على الرغم من ان بعض الباحثين في الحقل السيكولوجي لا يزال يعتقد ان اللاوعي لا يعدو ان يكون سوى فرضية جاء بها "فرويد". فلقد أسهمت كل من الفلسفة الفينومينولوجية و الفلسفة الوجودية في فرض الاعتراف بقيمة مشروع التحليل النفسي و ذلك في مقابل الوعي المعقلن الذي أسست له العقلانية الكلاسيكية منذ "رنيه ديكارت" ، كما ان كتاب "جورج بوليتزر" المعنون " نقد أسس علم النفس" ، هو مشروع لذات الفيلسوف و العالم يرمي الى تنقية فكر " فرويد " من تجريده و من واقعيته لصالح نظرية تلازم المعنى حيث قام بطرح مجموعة من القضايا النظرية باعتبارها اسطورية و من دون أساس ، كما انها لا تشكل سوى بناء ما وراء علم النفس - Parapsychologie - فالحلم عنده هو مجرد اشباع رغبة في فترة الحلم به من الناحية الزمانية كما ان القصة التي سينشئها الانسان الحالم ما هي في الحقيقة الا تركيبة مسرحية للحلم في حد ذاته ، وهي قد لا تتوافق تماما مع الوضع المعاش حقيقة وفي هذا التباعد ما بين المعاش و صياغة الحلم اللاحقة يجد التحليل النفسي مكانه . و من خلال ذلك يكون مهمته تفسير الحلم بمعنى ترجمة الوضع المعاش الى قصة مناسبة . و قد يكون " خطأ فرويد " يكمن في اعتقاده ان القصة التي ينشئها المحلل النفسي لتفسير معنى وضع معاش انما توجد فعلا في اللاوعي أي اللاشعور وهذا الخطأ سيجبره على اختراع اليات مركبة و غير شخصية تجعله يضيع العيني في حين انه ينبغي، حتى لا نخرج من حقل علم النفس، فهم الرغبة المعبر عنها في الحلم، بوصفها فعل " انا" - le Moi - فاللاوعي هو "التجوهر" النافل لهذا الفعل ، ففعل الفاعل يمكنه ان يكون مجهولا عند الفاعل ذاته لان الفاعل ليس شرطا ان يكون دائما معرفة ذات و دائما يعي ما يفعل.

إن فيلسوف الرمز و الفلسفة التأويلية " بول ريكور " يعتقد انه بعد " فرويد " لم يعد بالإمكان الإبقاء على فلسفة الفاعل و كأنها فلسفة الوعي كما يتساءل عن الطريقة التي يمكن للفلسفة من تحمل خطاب التحليل النفسي حول الرغبة، و عن مدى الطفرات اللازمة لتعديل موقع الفاعل في مواجهة مكائد الوعي الزائف و الذي قد يقول شيئا مختلفا عما يقوله و يعتقد . ان بعض الدراسات التي تناولت التحليل النفسي لم تتناوله كعلم مستقل بل تناولته كعلم نفس مثلما عرف عند العالم " وولف " (Wolf) ، فالمعجم النظري للتحليل النفسي تم انتقاده ، تعديله و أحيانا تأويله انطلاقا من فكرة الفاعل الانسان و هذه الطريقة في ابتلاع الفلسفة لعلم ما قد تظهر اكثر لما تحدد الفلسفة دورها كتوحيد نظم مستقلة و ارجاعها الى تماسك منظومة فكرية معينة .

ويؤكد " ريكور " ان قراءة " فرويد " قد تعتبر مغامرة تأويلية حيث ان الانا المفكر جريح، فالانا المفكر يعرض نفسه لكنه لا يتضمنها فهو لا يدرك حقيقته الاصلية الا في / او بواسطة الاعتراف بتباين وهم كذب الوعي الراهن. (Ricœur, 1965, p 81).

اذن المحلل النفسي يتنصب وفقا للخطاب الذي يتخذه وقد يصطف أحيانا مع العراف والكاهن ورجل الاخلاق والدين والباحث المتخصص في العلاقات الاجتماعية ... وكلهم ينصتون للآلام ومعاناة بني الانسان وخطاياهم، فالخطيئة الإنسانية هي مشكلة وجودية يتأرجح تفسيرها بين التمشي العلمي البحت مثل التفسير السيكولوجي لأفعال الانسان وبين التأويل الفلسفي على اعتبار ان نزعة الشر هي صفة ملازمة للإنسان انطولوجيا وتاريخيا.

ان التحليل النفسي هو جزء من كل، فهو منهج من بين عدة مناهج في علم النفس. فهناك تأويلات فلسفية كثيرة لقضايا نفسية مثل التأويل الفينومينولوجي للانفعال عند " سارتر " حيث قدم دراسة جادة ومعقدة للانفعال والذي هو ظاهرة نفسية باستخدام المنهج الفينومينولوجي مركزا بصفة خاصة على القصيدة والنزوع للفعل من اجل تغيير العالم والذي لن يتحقق الا بتغيير معمق للذات الفاعلة المدركة للعالم وللظواهر بخاصية إضفاء المعنى على الموضوعات الحيوية ذات الصلة الوظيفية بالذات، يقول سارتر: " ... والان نستطيع ان نفهم ما هو الانفعال. فهو تحويل للعالم. فحين تصبح الطرق المخططة شديدة الصعوبة، او حين لا نرى أي طريق، لا نستطيع عند ذلك ان نبقي في عالم ملح وصعب الى هذا الحد. وإذا كانت جميع الطرق مسدودة، من الواجب ان نفعل شيئا ما رغم ذلك. عندئذ نحاول ان نغير العالم، ان نعيش كما لو كانت علاقات الأشياء بممكنتها، غير منظمة بواسطة مناهج حتمية، بل هي منظمة عن طريق السحر " . (سارتر. 1980، ص54). ان " سارتر " ينظر للانفعال كفعل واع وكسلوك اختياري حر غير اجباري طابعا فينومينولوجيا بفعل القصيدة وعلاقة الذات بالموضوع، متجاوزا بذلك الحتمية اللاواعية للتحليل النفسي والحتمية الموضوعية للسلوكية، فلانفعال السارترى فعل حر وسحري في الوقت ذاته، غايته تغيير العالم والغاء/ تغيير للموقف عن طريق تغيير الذات في علاقتها بالموضوع او الظاهرة. و من خلال ذلك ينتقد " سارتر " التحليل النفسي وموقفه من الانفعال الذي يرده الى عوامل لاواعية مثل الكبت و الكبت الجنسي بصفة خاصة او الى عوامل أخرى لاواعية عميقة في الانا كالعقد النفسية و حوادث الطفولة ... الخ ، يقول " سارتر " : " ... في الحقيقة ما يجعل التحليل النفسي عسيرا ، هو ان التحليل النفسي لا يعتبر الدلالة وكأنها متأية بكاملها من خارج الوعي .و المحلل النفسي يعتبر دائما وجود تجانس داخلي بين الفعل الوعي والرغبة التي يعبر عنها ، لان الفعل الوعي يرمز للعقدة المعبر عنها ... من الواجب ان نتفاهم، حول ما إذا كان الرمز مكونا للوعي، وحرى بنا ان ندرك صلة تفهم لاصق بين تكوين الرمز والرمز نفسه. غير انه يجب ان نتفق على ان الوعي يكون نفسه رمزيا. في مثل هذه الحال، لا يكون وراء الوعي شيء و تصبح العلاقة بين الرمز وصاحب الرمز وتكوين الرمز، بمثابة صلة للوعي هيكلية داخلية Intrastuctural " . (سارتر، 1980، ص 44).

بالإضافة الى " سارتر " ، قدم الفيلسوف الفرنسي " ميشال فوكو " دراسة هامة تتعلق بالجنون من خلال مؤلفه " تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي " سنة 1961 ، و يعتبر اول عمل نظري متكامل او انطلاقة فعلية لمشروع نظري . ان الجنون عند " فوكو " يغري لأنه معرفة. انه معرفة لان هذه الصور العبثية كلها تمثل في الواقع عناصر معرفة صعبة، ومنغلقة وباطنية. ان " ميشال فوكو " يمكن تصنيفه ضمن الفلاسفة والمفكرين المعاصرين المناهضين لطب الامراض العقلية، وبصفة خاصة يقدم " فوكو " مقارنة فلسفية للجنون تتجاوز المقاربة الطبية. فكون الجنون مرض عقلي بحث قد لا يسهم في فهم هذه الظاهرة الطبية / الإنسانية من حيث الدلالة لأنه طالما صاحبت ظاهرة الجنون احكام قيمية اجتماعية / أخلاقية. فالجنون لا يقرأ في سياقه التاريخي الا بوصفه ظاهرة من ظواهر الاقصاء الاجتماعي " . (Bert, 2011, p 28) . ينتقد " فوكو " التجربة الطبية" الخالصة التي عجزت عن تقديم رؤية عميقة للجنون، من حيث كونه ظاهرة للاستيلاء Aliénation في الثقافة الغربية ، و من خلال ذلك وصف " فوكو " الجنون على انه " المعنى في حالة تشظي " (Foucault , 1972 , p 181) .

ان معنى هذه العبارة هو اننا لا يمكننا ابدان ان نقرا ونفهم الجنون الا خارج النسق والنظام العام للخطاب السائد، لذلك لجأ ذات الفيلسوف الى الروايات الأدبية و النصوص القانونية والتقارير الطبية و الممارسات الاجتماعية و القرارات السياسية، وكل ما له صلة من قريب او من بعيد بظاهرة الجنون بوصفها ظاهرة إنسانية ذات دلالات عميقة أكثر منها مجرد ظاهرة مرضية اكلينيكية / طبية . اذن قرأ " فوكو " الجنون قراءة فلسفية واستشكله بوصفه منظومة خطابية من مجموع منظومات الخطابات التي سادت في التاريخ، فلا يمكننا ان نختزله في خطاب واحد وهو الخطاب الطبي بوصفه ظاهرة مرضية فقط، بل الجنون أكثر من ذلك، من حيث انه بعد انطولوجي من حيث علاقته بالوجود وكذلك في بعده الذاتي من حيث صلته بطبيعة الانسان من حيث الرمزية كذلك. و خلاصة القول، فالجنون مرتبط بالعقل، فتاريخ الجنون هو في حد ذاته تاريخ للعقل، فاذا كانت السرديات الكبرى قد ادرجت لتاريخ العقل، من المعقول واللامعقول، فان تاريخ "فوكو" للجنون هو بمنحى مغاير تماما لأنه اماط اللثام عن قبح الحداثة الغربية واستكشف عدمية العقل الغربي.

9 - خاتمة:

من خلال ما تم تحليله سابقا، يمكننا ان نستنتج ما يلي:
أ/. العلوم الإنسانية هي علوم حديثة النشأة ومنها علم النفس، فهي لا تزال تصبوا للعلمية أكثر على الرغم من بعض العوائق الاستمولوجية القائمة امامها مثل عائق التداخل بين الذات الباحثة وموضوع البحث، عائق المنهج او المناهج وعائق الموضوعية العلمية.

ب./السيكولوجيا تدرس الحياة النفسية للإنسان مثل الشعور او الوعي و اللاشعور او اللاوعي و السوك الخارجي الموضوعي بالإضافة الى الوظائف العقلية العليا : الذكاء ، الذاكرة ، الادراك و التخيل ، بالإضافة الى السلوك الخارجي باستخدام مناهج متعددة ، و لكن ذات الامر لا يجعل السيكولوجيا تستقل تماما عن الفلسفة بل بالعكس لا يزال السؤال الفلسفي حاضرا و بقوة في كل الدراسات السيكولوجية المعاصرة سواء تعلق الامر بالعقل و فعل التفكير ، او بالشعور و اللاشعور و السلوك او بالشخصية و امراضها المختلفة في علم النفس المرضي او الاكلينيكي ، و بالإضافة الى كل ذلك هناك جوانب في الانسان لا تزال غامضة و لا يمكن للعلم ان يفصل فيها كونها ذات معنى فلسفي مثل مشكلة الحرية و الوعي و الجنون و الاحلام و الحب و النزعة التدميرية... الخ ، و لعل ما يؤكد ذلك ظهور فرع في علم النفس يسمى ما وراء علم النفس (Parapsychologie).

ج / اذن يبقى السؤال الفلسفي مطروحا في الدراسات السيكولوجية المعاصرة ولعل التكامل المعرفي بين مختلف العلوم هو الأساس المعرفي الجديد الذي يستدعي حضور الفلسفة وبقوة في كل النشاطات العلمية والفكرية للكائن الانسان.

قائمة المصادر والمراجع:

أولاً: المراجع باللغة العربية:

- 1-إريك فروم. (2012) ازمة التحليل النفسي، ترجمة محمود منقذ الهاشمي، اللاذقية، سورية، دار الحوار للنشر والتوزيع، ط 2.
- 2.إريك فروم. (2016) تشرح التدميرية البشرية، ترجمة محمود منقذ الهاشمي، دمشق، سورية، دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع، الجزء الثاني.
- 3.إريك فروم. (2015) التحليل النفسي والدين، ترجمة محمود منقذ الهاشمي، اللاذقية، سورية، دار الحوار للنشر والتوزيع، ط 2.
- 4-بول موي (دون تاريخ)، المنطق وفلسفة العلوم، ترجمة فؤاد حسن زكريا، الإسكندرية، مصر، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر.
- 5-جان بول سارتر (1980)، نظرية الانفعال، دراسة في الانفعال الفينومينولوجي ، ترجمة هاشم الحسيني ، بيروت ، لبنان ، منشورات دار مكتبة الحياة .
- 6.ج.ب.جيلفورد ، (1981) ، ميادين علم النفس النظرية والتطبيقية ، ترجمة الدكتور يوسف مراد ، القاهرة ، مصر ، دار المعارف ، المجلد الأول .
- 7- روبرت بلانشي (1980) ، المنطق وتاريخه من ارسطو حتى راسل ، ترجمة خليل احمد خليل ، الجزائر ، ديوان المطبوعات الجامعية .

- 8-قباري محمد إسماعيل (1980)، علم الاجتماع والمنطق، الإسكندرية، مصر، دار المعرفة الجامعية، الطبعة الثانية، الجزء الأول.
- 9-محمد وقيدى (1983)، ما هي الاستمولوجيا، بيروت، لبنان، دار الحداثة، الطبعة الأولى.
- 10.يوسف مراد. (1978)، مبادئ علم النفس العام، القاهرة، مصر، دار المعارف.
- ثانياً: المراجع باللغة الأجنبية:
- 11-André Lalande , (1996). Vocabulaire Technique et Critique de la Philosophie. Paris, France : Editions PUF.
- 12-August Comte (1839) , Cours de philosophie positive , Paris , France , éditions Bachelier Imprimeur Librairie .
- 13-Couturat Louis, (1906) la logique et la philosophie contemporaines, Revue de métaphysique.
- 14-George Politzer (1967). Critique des fondements de la Psychologie. Paris, France : Editions P. U. F.
- 15- Husserl Edmond (1958), Ideas General Introduction to Pure Phenomenology, Translated by W.R.Boyce , London , Allen and Unwin , Ch. 3.
- 16- Jean François Bert (2011), Introduction de Michel Foucault, Paris, édition la découverte.
- 17-Jean Piaget (1973), Introduction à l'épistémologie génétique, Paris, France, éditions : PUF, tome 3.
- 18- Michel Foucault (1972), Histoire de la folie a l'âge classique, Paris, éditions Gallimard.
- 19-Mitchell.J (1990) . An Introduction to the logic psychological Measurement Hillsdale NJ.
- 20-Larousse (2005). Grand dictionnaire de la philosophie. Paris, France: Editions CNRS.
- 21-Maurice Merleau-Ponty. (1945). La Phénoménologie de la Perception. Paris: Editions Gallimard.
- 22-Paul Ricœur. (1965). De l'interprétation. Essai sur Freud .Paris, France : Editions Seuil.
- 23-Sartre Jean Paul. (1943). L'Etre et le Néant. Paris, France: Editions Gallimard.
- 24-Sigmund Freud. (1965). Inhibition, Symptômes et angoisse. Paris, France : Editions P.U. F.
- 25 -Sigmund Freud. (1967). Essais de Psychanalyse, Paris, France : Editions Payot.